النجف الأشرف مدينة الوحي والإلهام

الشيخ عبد الهادي العصامي(*)

موقع النجف

النجف مولد العبقرية والنبوغ، ومهبط الوحي والإلهام، فإذا أردنا أن نتكلم عنها، يجب أن نلم بكل أطرافها، وأولها موقع هذه المدينة المقدسة:

إن موقع النجف الجغرافي لم يحدثنا التاريخ بمثله، فقد جمع إلى يبوسة الهواء وحرارته عدم الماء، وموقع كهذا لم تؤسس فيه مدينة كالنجف في وسط صحراء قاحلة رملية لا ماء فيها ولا نبت مع أنها معرضة لغزو شذاذ عرب البادية وأذنابهم، ولكن النجف معجزة الدهر، فقد تأسست في وسط صحراء رملية متموجة كسبيكة ذهب تحت أشعة الشمس، تتوهّج لظى في الصيف وكقطعة جليد في الشتاء لم ينبت بها إلاّ النباتات التي تعيش على غير ماء، بعد أن كانت مرتعاً للظباء، ومصيفاً للرشيد هارون.

أنشئت مدينة النجف في وسط تلك الصحراء على مرقد سيد الأوصياء الإمام الأعظم بعد الرسول صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يحيط بها سور منيع، ويحيط بهذا السور خندق، يزيد عرضه على خمسة أمتار أما عمقه فنحو ثمانية أمتار، وكان الغرض من إنشاء هذا السور، وحفر الخندق حماية سكان النجف من الغزاة الماردين، إذ كانت معرضة للأخطار، ولولا ذلك لما كان النجفيون يقوون على رد الهجمات التي شنها آل سعود غير مرة على النجف، وتكبيد الغزاة الخسارة الفادحة في النفوس والأموال.

وتقع على جبل شامخ كأنه يشير إلى شموخ ما يؤسس عليه، ويتجلّى شموخه لمن قصدها من جهة الغرب بحيث يجعل مغرب الشمس خلف ظهره ووجهه شطرها، كما يتجلى له منظر رائع من أروع مناظر الطبيعة، فان النجف بموقعها هذا كأسد رابض فوق قمة جبل شاهق يرعى بإحدى عينيه الجزيرة العربية خوفاً من أن يسطو الأجنبي عليها، فيبتز منها أثمن عقد، احتفظت به منذ أجيال وأجيال ـ هو تاج عزها ـ ويرعى بالأخرى مهبط النبوات، وعرين

(*) أديب فاضل وكاتب شاعر، (ت.....).

عن: صحيفة العدل النجفية، السنة ٣، ع٦-٨ حزيران - تموز ١٩٦٨م.

الأسود ومعقد آمال العروبة، ومنار مجدها وإكليل عزها، ودماغها المفكر، وعقلها الراجح وروحها الحساس وقلبها النابض، العراق النبيل.

ومن جهة الشمال حتى الشمال الشرقي والغربي مثوى الأبطال ومسكن العباقرة من العظماء الذين عجموا عيدان الدهر، فلانت بأكفهم، وغمزوا قناة الدهر، فتثنت بأيديهم، كما هو مرقد الصالحين والعلماء الروحانيين الذين علت بهم مكانتهم حتى قبضوا على هام الثريا، وهذه الأرواح المجتمعة في سمائها السابحة في عالمها. عالم الأنوار، تمد الأرواح الشاعرة بالوحي والإلهام من عالمها العلوي وتودع بين جوانحها قبساً من ذلك النور الإلهي لنهتدي به إلى حل المشاكل الفلسفية، والغامض من العلوم وليس من التزيد لو نقول: إن الطبقة العالية من طبقات النجف، لا بل عامة طبقاتها معجزة الدهر كمدينتهم غير أن الطبقة العالية تمتاز بالوحي والإلهام، والنور الإلهي الذي تستهدي به فيما أسود من ليالي حياتها.

ويحوط كل ذلك صحراء رملية واسعة يسافر فيها النظر تتصل ببادية الشام والحجاز، وهذه الصحراء تمتد إلى مسافة تزيد على الإثني عشر ميلا حيث تتصل بريف الفرات، ومن جهة الشرق تتصل بنهر الفرات على بعد ستة أميال، وقد حاول غير واحد إيصال الماء من الفرات لريها وبذلت في ذلك السبيل مالية وافرة وجهود عظيمة فلم تعد عليه إلاّ بالفشل والخيبة، إذ كان من المستحيل أن يجري الماء من السفح إلى أعلى الجبل وما نهر الفرات الأسفح ذلك الجبل الشامخ وقد باء أيضاً بالفشل من حاول ري النجف من تحت الأرض فشق نفق في الأرض إلى مسافة بعيدة بقصد أن يوصل بنهر الفرات فانفجر على العمال ينبوع ماء أجاج، فنجوا بأنفسهم.

وهنا نتساءل: لماذا ذهبت هذه الجهود الجبارة ذهاب الريح بالزبد دون أن يدر عليهم المال البالغ فوق حد الإحصاء صرفه بالريح الجزيل ويلمسوا ثمرة أتعابهم؟ إلاّ أن النجف معجزة الدهر ولا تتم المعجزة إلاّ بذلك.

أجل أنها هي الحقيقة، ولولا ذلك لما كانت معجزة الدهر ولا كمال هذه المعجزة الباهرة صارت مقصد الوفود، وكعبة الزوار ودار هجرة لطلاب العلم، ومحط الآمال وموضع ثقة المجتمع، والباب الذي يسلك منه ذوو المقاصد إلى غاياتهم.

وإنا لنتحرج لو أردنا أن نَصِفَ تربة النجف فهي بقدر ما تكون مقدسة، تربي أمثال العلامة الأنصاري والشيخ محمد طه نجف، والعلامة الحبوبي والسيد الداماد، تربى من كانت الشرور ملء إهابهم لا يعرفون غير المخاتلة والخداع يستحلون قتل النفس المحرمة ولا تطيب لهم نفس دون إتيان الجرائم على اختلاف ضروبها والموبقات على اختلاف أنواعها وإذا ما عللنا

الشطر الأول: بأن لا منشأ له غير نزاهة الضمير وطيب السريرة وتوقد الذهن وحدة الذكاء وإرهاف الحس فبم نعلل الأخير؟ لا شك أن ذلك وليد تربتها ثم إن عمل الخير أينما وجد فلابد وأن يوجد الشر معه، وذلك أن عمل الخير وليد الثقافة العالية الصحيحة، والشر وليد الجهل فأينما وجد العلم كان الجهل إلى جنبه فلا يتقدم العلم خطوة إلاّ ويخطو الجهل نفسها.

طرق مواصلاتها:

كانت طرق مواصلاتها منحصرة في البغال والحمير، تنقل عليها البضائع لسد حاجيات المدينة، وللسفر إلى كربلاء والكوفة والحيرة وأبي صخير وفي أخريات العصر العثماني تأسست شركة فمدت سكة حديد للترامواي بين النجف والكوفة يسحب كل عربة حصانان، كما تأسست شركة، واتخذت عربات لنقل الزوّار والمسافرين من النجف إلى كربلاء والكاظمية كل عربة تسحبها أربعة من الخيل، وأسست مراكز لتبديل خيولها في خان الحماد وكربلاء والمسيّب والمحمودية ومنها إلى الكاظمية.

وأخذت طرق مواصلاتها بالتطور منذ الاحتلال البريطاني للعراق، وبالتدريج أبدلت البغال والحمير، والإبل التي تنقل المحصولات الزراعية إليها بالسيارات وفي عهد الحكم الوطني ألغي امتياز الترامواي، ولم تبق حاجة إلى الوسائط الأولى إلاّ لنقل البضائع من الكراجات إلى المحلات التجارية الملتوية الطرق المؤدية إليها، وإلى بعضها تصل السيارات إليها بحمولتها.

طبقات النجف

١ ـ العلمية: وهي المؤلفة من العلماء، وطلاب العلم والأدباء وهذه هي التي رفعت معالم عزها وأقامت دعائم مجدها بما أراقته من دم حياتها.

٢ ـ طبقة التجار.

٣ ـ طبقة العمال.

٤ ـ طبقة السواد، وهي مؤلفة من الشمرت والزكرت ومن لف لفهم.

مركز النجف التجاري

منذ أن تألق نجم النجف صارت مركزاً تجارياً مهماً، تنقل إليها المحصولات الزراعية على اختلاف أنواعها مما يحيط بها من ريف العراق على الإبل والوسائط النهرية إلى الكوفة ومنها إلى النجف إلى الترامواي والبغال والحمير والإبل وصارت مركزاً مهماً لاكتيال عرب البادية منها، فكانت قبائل شمر، وعنزة، والظفير تأتي من بادية الشام والحجاز للاكتيال من النجف.

ومن حيث كان الاستيراد مطلقاً، كان تجار النجف، يستوردون السجاد الكاشاني، والعقاقير وأنواع أخرى من العطارية من إيران كما يستوردون من الهند ما تمس إليه الحاجة.

وكان التجار بالأمس غيرهم اليوم بالأمس يحاسب التاجر نفسه خشية أن في دخله شيء من السحت، فيعرض نفسه للعقاب من الله على ما اقترف من المال الحرام، وإذا وجد بينهم من لا ضمير له يردعه عن ذلك وعن الاحتكار قوة تسقط مكانته في المجتمع النجفي، ويصبح محتقراً مهاناً.

أما اليوم فحدث عن المحتكرين لأي نوع مما تمس إليه الحياة بما شئت وعن المرابين بكل ما أوتيت من بيان فغير ضائر بهم ما دام المتزيّون بثوب الدين يتعقبون على أبواب محلاتهم ودورهم، تساندهم أصنام لا تسجد لغير الدينار والدرهم، وقد شاهدت في مجلس أحد الأصنام أن رجلاً من أهل العلم دخل عليه، فلم يقم إجلالاً له، ولم يبش في وجهه بل قطب وصبحه بخير من وراء أرنبة أنفه، ودخل شاب قد حلق لحيته فتهلل وجه الصنم له وبش في وجهه، وقام له إجلالا وحياه، وأخذ يسأله عن أحواله وعن أبيه ومتعلقيه، والشباب المتغطرس بثروته يحمد الله، إذا كيف لا يصبح سوق المرابين والمحتكرين رائجاً وسوق من عنده خوف من الله كاسداً؟!.

الهجرة إلى النجف:

كانت النجف قبل أن يهاجر إليها الشيخ الطوسي سنة ٤٤٩هـ دار علم يضم سورها رجالا من شيوخ الإجازة، وجهابذة العلم وكان من بين أولئك الرجال الشيخ أبو عبد الله الخمري - نسبة إلى بيع الخمر جمع خمار - وكان يومئذ من يريد طلب العلم لا بد أن يحترف بحرفة أو يمتهن مهنة تدر عليه ما يكفل الحياة له ولمن يعول بهم وهذا شأن من يطلب العلم للعلم أما من يطلب العلم للرئاسة واكتساب المال من أي طريق كان ويتعقب السواد على باب داره، ويمرغوا نواصيهم بأعتابه، فلا بد أن يطول موقفه بين يدي الله -تعالى- إن كان يعتقد بأن هناك معاداً وحساباً. لأن الله ما أوجد العلم إلاّ للهدى والاستنارة به لا لجمع المال وادخاره.

وفي الوقت الذي كانت النجف دار علم كانت الحلة الفيحاء حاضرة العلم قد تخرج منها فطاحل العلم وجهابذة البيان أمثال العلامة الحلي والمحقق الحلي وابن طاووس والشيخ ورام والأماثل من أهل العلم، وما أفل نجم الحلة الوضاء إلاّ بعد أن هاجر الشيخ الطوسي إلى النجف فعندئذ أخذ نجمها بالأفول تدريجاً واتسعت دائرة الهجرة إلى النجف لطلب العلم، فأخذ نجمها يأتلق في سماء الحياة حتى صارت مقصداً من كل فج عميق تقصد للانتهاء من معين العلم الفياض، ولزيارة مرقد الوصي الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

الحلقات الدراسية:

إن الهيئة العلمية، إنما تدرس العلم للعلم لا لغاية أخرى لذلك يمنح الطالب حرية واسعة النطاق، فله حق الاعتراض على أستاذه ساعة إلقاء الدرس عليه، وعند المذاكرة والبحث ويتلقى الأستاذ كلما يوجه التلميذ اعتراضاته بكل ارتياح دون سأم أو ضجر أو ملل ويجيبه عنها حتى يحقق له الغرض المقصود وإن استغرق ذلك زمناً طويلاً.

وكانت الحلقات متعددة حسب درجة العلم فالمبتدئون الذين يدرسون علوم اللغة العربية لهم حلقات حسب تقدمهم في تلك العلوم تضمهم للمذاكرة في دروسهم وهكذا يلتحق الطالب بحلقة (علم المنطق)، ثم تنتهي هذه الحلقات بحلقة الذين يدرسون (علم المعاني والبيان)، وإذا أنهى الطالب ذلك يلتحق بحلقة الذين يدرسون (علم الأصول والفقه)، ودراسة الفلسفة أمر لازم غير أنها لم تنفك عن الحلقة الأخيرة، وفي ضمن دراستهم هذه يدرسون علم الحساب والهندسة وعلم الهيأة (الجغرافية الرياضية)، وتنتهي الحلقات الدراسية بالحلقة الكبرى التي منها تكون المرجعية في التقليد والفتيا، وهذه الحلقات على اتصال دائم بعضها ببعض لا سيما إذا أشكلت مسألة على حلقة فتقصد من فوقها محترمة جانبها لتحل لها ما أشكل عليها، ولقد كانت الآداب مرعية فكل حلقة تعرف مكانتها عمّا فوقها وتسري هذه الآداب حتى في المجالس العامة والمنتديات العلمية والأدبية.

وفي خلال أيام الدراسة والعطلات، كان ولي الطالب يختار له من بين مجاميع الأدب العربي من شعر ونثر ما يملك القلب ويستولي على الشعور والعاطفة ويلزم ابنه أو أخاه بحفظه واستظهاره، وقد يهبه جائزة فيما لو حفظ ألف بيت من الشعر تشويقاً له وترغيباً فلا تمضي فترة قصيرة من الزمن إلاّ وذلك الطالب أديب فذٌ وشاعر فحلٌ أو ناثر مفن يتصرف في الألفاظ والمعاني حسبما توحي له نفسه الشاعرة.

وكثيراً ما يكون ذلك موهبة فطرية كما لمعجزة الدهر ولا ريب إذا ما قلنا انه يستمد الوحي الإلهامي من سماء تلك المعجزة فتمده تلك الأرواح بما في عالم النور السابحة فيه ولم يك في عالمها إلاّ الفضيلة والشعر والحكمة.

مجالس الأدب:

إلى جنب تلك الحلقات الدراسية مجالس تزدهر بعيون الأدب والأدباء فكانت الحفلات تقام للتهاني والعزاء، وهي حلبات يتبين فيها خفيف الجري من الهجين أو هي معرض أدبي كل يعرض فيه بضاعته الأدبية التي أودع فيها بنات فكره وحبات قلبه بأسلوب طلي ومعاني سامية،

صادرة عن شعور دقيق وعاطفة وهاجة وإحساس مرهف، لم يبغ من وراء ذلك إلاّ أن ينال قصب السبق وليس هو إلاّ التقدم على من عداه في المكانة الأدبية.

وكثيراً ما يحدث انشقاق بين الأدباء أنفسهم فتمتد تلك الحفلات وتأخذ لها صبغة جديدة فترى كل فريق يهاجم الآخر ويظهر معايبه الأدبية بملح وظرف، دون أن يسيء إليه وتشتد تلك الملحمة الأدبية حتى ينزل إلى تلك الحلبة من كان معترفاً بسمو مكانته في عالم الأدب فحينئذ يكون قوله الفصل، وتنتهي المعركة وينفض الحفل بانتصار فريق وخذلان الآخر أو انتصار وخذلان لكلا الفريقين.

وهذا الانشقاق تارة يكون سببه التفاضل بين الشعر والنثر، ففي هذه الحلبة طلب مني أستاذ عزيز علي أن لا أدخل المعركة مهما كلفني الأمر من التحمل والسكوت على مضض فكنت احضر تلك الحفلات كالمتفرج وقد طالت، واستطال الفريق المؤيد إلى الشعر وأخيراً تقدم أحد الأدباء بمقطوعة ارتجالية حتى إذا قال:

النثـــــر مفهـــــوم النـــــوى والـــــشعر مفهـــــوم الرطـــــب

وعندئذ لم يبق عندي في القوس منزع فقمت وأشرت إلى المرتجل قائلا:

كفى بالنثر أن يكون هو النواة إلى الشعر والبذرة الصالحة لاستنباته، وبهذا انتصر النثر على الشعر واندحر الفريق المؤيد له وما كان من ذلك الأستاذ إلا أن عض على سبابته وصفق يداً بأخرى ألماً على ذلك الاندحار.

وأخرى يكون الانشقاق بين الشباب والشيوخ بأن أيّهما أطول باعاً وأسمى مكانة في الأدب وكثيراً ما تسبب الشيوخ هذا الانشقاق بقصد أن تقوى ملكة الأدب في قلوب الشباب لتجعل منهم أئمة الأدب والبيان في المستقبل.

وإلى جنب هذه الحفلات والمجالس الخاصة التي تضم عيون الأدباء وأئمة البيان كالعلامة الشبيبي الكبير الشيخ جواد والعلامة الشيخ عبد الكريم الجزائري والعلامة الشيخ هادي كاشف الغطاء والعلامة الشيخ عبد الحسين الحياوي والعلامة الشيخ عبد الحسين الحلي والعلامة الحبوبي، وأضرابهم السيد حيدر الحلي والسيد جعفر الحلي والسيد صالح القزويني، وهذه المجالس لا تشتمل إلاّ على النكات الأدبية المشوبة بالملح والظرف الذي يرد النفس إلى عمر الشباب ويجعلها لا تحلم إلاّ بأحلامه.

وقد تقام الدعوى عند قاض أديب بأسلوب ينم عن مقدرة صاحب الدعوى في صوغ المعاني الرائعة بقالب طلي في منثور القول ومنظومه، حتى يوهم على القاضي بأنها ظلامة

صريحة وحق مهتضم، فيجد القاضي في إحقاق الحق وانتشال المظلوم من ظلامته واسترجاع الحق المضاع إلى صاحبه حتى يبذل كل مجهود وبعد أن يقدم صاحبها الشهود العدول والمتهم واقف أمام محكمة العدل في قفص الاتهام ينتظر ماذا سيجري عليه من العقاب إزاء عدوانه وظلمه وإذ ذلك يتبين القاضي أن ذلك الحق المهتضم لم يكن أكثر من أنه معنى شعري ابتزه هذا من ذاك ومثل هذه الدعاوي لا تقام إلاّ عند قاض جنونه الأدب والشعر والبيان.

الحركة العلمية والأدبية:

مضى زمن بعيد، والنجف حاضرة الفلسفة حاضرة الأدب وقد تمتعت بهذه الحياة منذ تأسيسها، ولم تزل ولن تزال دار هجرة لطلب العلم بكل أنواعه وقد توفرت فيها أسباب الحياة لطلاب العلم وأسباب العز ورعاية الجانب وحفظ الكرامة فكانت هذه من أهم البواعث لازدياد عدد طلاب العلم واهتمامهم بالعلوم وشغفهم بها فاعتكفوا على الدرس والتأليف فكانت هناك ثروة عظيمة من العلم والعلماء.

أما الثروة من الأدب والأدباء فلا تقل شأناً عن أختها إذ كان الأدب ينمو بنمو العلم وتقدمه، فالطالب لن ينهي الدرجة الأولى من العلم، إلاّ وهو شاعر فحل له مكانته الأدبية وكلما يلغ درجة من العلم ويجتازها تعلو به مكانته الأدبية.

وبالرغم من اضطراب السياسة العثمانية وكثرة الفتن والحروب الداخلية، والثورات المستمرة بين النجفيين والغارات على النجف، كانت النجف تتمتع بعصر مخصب بالعلوم والآداب مزدهرة بثمار عقول العلماء والأدباء تؤتي أكلها الشهي كل حين وكانت إلى جنب ذلك مركزاً دينياً من أهم المراكز الدينية في العالم الإسلامي يرعى جانبه ويخشى من سطوته ومرجعاً يؤخذ بقوله ولا يصدف أحد عن رأيه وهذا هو الذي أوجب أن يقلص ويجرد ويحال بينه وبين المجتمع العراقي كيما تصدف القلوب عنه ولكن أزمة القلوب بِيَدِ من صير ذلك المركز الديني معجزة الدهر.

ولو لم يلبسها الله ثوب جلاله وعظمته لما استطاعت أن تحتفظ بتراث السلف الصالح وتحيي مآثر أجدادها وتخدم لغتها وأمتها في عصر كان التكلم باللغة العربية ودراسة علومها محظوراً على كل عربي بينا في البلاد الأخرى لم يبق من اللغة العربية إلاّ اسمها وهذا ما جنته السياسة الخرقاء على الأمة العربية.

وإذا أراد الله -تعالى- شيئاً هيأ أسباب وجوده فقد أراد أن يجعل من الأمة العربية أمة تهدي إلى الحق وبه يعدلون كي تكون مناراً تهتدي بهديها الجزيرة العربية وتنشلها مما أوقعتها

فيه السياسة العثمانية وتحيي الروح العربي وتبعثها بعثاً جديداً بحيث لا تستطيع السياسة المعادية العبث فيها فكانت النجف عرين الأسود الذين لا همَ لهم إلاَ أحياء اللغة العربية وخدمة أمتهم فكانت تلك السياسة تبذل أقصى جهودها المستطاعة لقتل الروح العربي وإبادة لغة الضاد، وكانت النجف متحفزة ضد تلك الجهود.

وبالرغم من إذلال السياسة للأمة العربية واضطهادها للغة الضاد ومكافحتها لنشر العلوم والثقافة نمت العلوم والآداب في ظل تلك السياسة المصاحبة للجهل المعادية للعلم وازدهرت ازدهار الطبيعة بجمال الروض الرائع، وآتت ثمرها الجني على الرغم من محاولات السياسة لخنقه قبل أن يستنشق نور الحياة بل نما نمواً عظيماً وتدلت غصونه في سماء الجزيرة العربية حتى كان كل غصن معولا هداماً يثل في عرش تلك السياسة ويحطم معالم مجدها وينقض أركان عزها.

تعالى ضرم تلك الحركة العلمية والأدبية وكان وقودها أرواح العلماء والأدباء كيما تطول حياة تلك النهضة العظيمة التي لا مثيل لها في تأريخ حياة الدولة العثمانية وكان شرر تلك النار المضطرمة خريجي جامعة النجف من المهاجرين إليها لطلب العلم للعلم.

ومن يلاحظ تأريخ النجف باستقراء مستمر من بدء تأسيسها حتى اليوم يرى أن الطبقة العلمية كانت على درجة عالية من الثقافة الرفيعة حتى نبغ فيها علماء في كل نوع من أنواع العلوم حتى في الطب اليوناني الذي هو سلم الارتقاء للطب الحديث كما نبغ آخرون في الفلسفة وادخلوا عليها نظريات جديدة كان لهم مجد السبق فيها على فلاسفة اليونان مثل (صدر المتألهين ونصير الدين الطوسي) وأضرابهم.

فكان قلم العالم وريشة الكاتب ولسان الشاعر يقذفن شرراً ويصبن حمماً على تلك السياسة حتى صيرنها قائمة على عرش خاوٍ لا تدري متى تعصف بها عواصف الدهر فتقذفها في يم العدو حتى ضرب الدهر ضربته فإذا هي حديث تأريخي مملوء بالمآسي والآلام والتجارب والعبر تعطي دروساً ضافية للأمم المعتبرة.

مميزات الحركة:

قد تنمو الحركة العلمية وتزدهر العلوم والآداب أثناء الضعف السياسي وتلاشي السلطة الحاكمة كالعصر الذي انحلت فيه الخلافة العباسية بحيث لم يبق لها إلاَ الاسم مع كثرة الفتن ونشوب الحرب بين الممالك المتنافسة، كما تنمو وتزدهر في ظل الأمن والسلام وتحت رعاية ملوك يحرصون على مجد العلم ورفع مناره كالعصر الذهبي عصر الرشيد والمأمون.

أما الحركة العلمية في النجف فقد كانت معجزة الدهر كالمركز الذي ولدت فيه إذ كانت السلطة الحاكمة عدوة العلم والعلماء يشق عليها أن تشاهد من نال حظاً وافراً من الثقافة بحيث تؤهله ثقافته لأن يشق له طريقاً في الحياة ثم يسير فيه على نور العلم وهداه حيث الحرية المطلقة لأنها الطريق الذي ينتهي بانتزاع البلاد العربية منها.

ثم إن العصر الذي انحلت فيه الخلافة كان حافلاً بملوك يتنافسون على رفع منار العلم وتعظيم العلماء والأدباء تنافسهم على سعة الملك وامتداد النفوذ فلم يتركوا شيئاً من جهودهم إلاّ وبذلوه لإعلاء معالم العلم واجتذاب العلماء والأدباء حتى كانت مجالسهم حضيرة العلم ومنتدى الآداب وكان موضع ازدحام العلماء والشعراء على أبوابهم كما كانوا يتطاولون بكثرة العطاء ومنح أرباب العلم والأدب الجوائز القيمة كي يكثروا من مدائحهم فتخلد أسماؤهم ويبعد صيتهم ولقد تطورت الحال حتى كان الملك لم يتخذ له وزيراً إلاّ ممن بلغ ذروة عالية في العلوم والآداب كالصاحب بن عباد وأبي العميد والطغرائي.

فهنا ترى الحركة العلمية والأدبية لم تأخذ مستواها الرفيع حتى كانت تلك الثروة العظيمة من العلم والعلماء والأدباء إلاّ بتشجيع الملوك وطلب حظوة عندهم فلولا جوائز سيف الدولة الحمداني وإغراء كافور الإخشيدي لأبي الطيب لما كان هناك متنبي.

أما العصر الذي ازدهرت فيه العلوم والآداب في النجف فقد كان مجرداً من كل ذلك فلا ملوك يتنافسون في انتشار العلوم والآداب فتأخذ مستواها الرفيع ولم تحدث أرباب العلم والأدب نفوسهم أن ينالوا حظوة عند ملك أو أمير بل كانوا يطلبون العلم للعلم مجرداً عن عرض الدنيا لأن ذلك ظل زائل ومجد العلم باق ما دامت الإنسانية متمتعة بنور الوجود ولا يرون من العقل أن يطلبوا العلم للدنيا إرضاء لشهرة النفس لأن ذلك هو الموت المعنوي ومن طلبه لإرضاء شهوة النفس يخلد مع الرذيلة لأنه هو نفسه رذيلة.

وكانوا يعنون بالأدب عنايتهم بالعلم لا للارتزاق فيه بل لتهذيب النفس وصقل الشعور وإرهاف الحس ونمو العاطفة وترويح الروح من جهد العلم وأتعاب الحياة فكانت هناك عواطف فياضة بالنثر والشعر وإحساس مرهف وشعور دقيق صادق يعبر عن خلجات النفس وانفعالاتها النفسية المكبوتة في أعماقها وعندما يعطي الأمة صورة بأسلوب جذاب يجذب القلوب ويملك العقول ولم يك صورة صادقة لنفسية الأديب حسب بل هو يلمس الأمة تأثيراتها القلبية وانفعالاتها من خلجات نفسها ويقدم لها كأساً طافية من خمرة عاطفته تقف عن الطلب لضالتها لأنها لم تنشد إلاّ قلبها النابض وروحها الشاعر ودماغها المفكر ليريها في مرآته صورة انفعالاتها وتأثراتها وقد ظفرت بضالتها وهي متغلغلة في أعماقها تضع أمامها بين حين وآخر صوراً للحياة.

وقلما تجد عالماً غير أديب لأن حلية الفضل لا تزدان إلاّ بحلية الأدب، فكان كل من خريجي جامعة النجف الكبرى قد زان عقله بالعلم ونفسه بالأدب وكيف لا وهو يرى الأدب من ضروريات الحياة العلمية كما هو من ضروريات الحياة العامة، فالعالم لا ينال درجة الاجتهاد ما لم يكن أديباً قد أحاط بمفردات اللغة العربية والمعاني التي اشتملت عليها استقامتها وأتقن علم المعاني، والبيان. والبديع الذي هو فلسفة قواعد اللغة لأن أدلة علم الفقه أهمها الكتاب والسنة وقد اشتملا على كل ما في ذلك العلم من أوجه المعاني والبيان والبديع ولن يذكر ذلك إلاّ الأديب الذي أحاط بمعاني المفردات بما اشتملت عليه من حقيقة ومجاز واشتراك ومن لم يبلغ درجة رفيعة في الأدب فاجتهاده في الأحكام مشكوك فيه لعدم تفهمه للكتاب والسنة.

والنوادي إذا جردت من ذلك العقد الثمين فهي نواد لا تضم إلاّ ميت الأحياء ثم إن الواجب القومي يحتم عليه أن يحتفظ بلغته ولغة سلفه الصالح اللغة العربية وطريق الاحتفاظ بها منحصر بآدابها.

الحياة السياسية والاجتماعية:

كانت النجف في العصر العثماني كقارب صغير في وسط لجة طامية من الفتن تتقاذفها تيارات من الجهل الصاخبة جهل الطبقة العامة التي لا تسكن إلى الخلود ولا ترتاح بالدعة قد انشقت عصى الألفة إلى اثنين لم يخضع احد الحزبين إلى آخر إذ يرى الخضوع سحقاً لكرامته واستهانة بمكانته في حين كان كل منهما لم يمن نفسه إلاّ بشهوة الحكم والاستطالة فيه كي يعيث في المدينة المقدسة مفسداً -ولكن لربك شأن- كيما يحفظ كرامة هذه المدينة المقدسة فألقى بينهما الشحناء وغرس في قلبيهما السخيمة، حتى نفرت مراجل الحقد فيها بحيث لم تطب نفس الحزب إلاّ أن يفتك في الآخر المناوئ له ويتشفى بدمه ولولا ذلك لما آمنت الطبقات الأخر على دمائها وأموالها.

ومع ما نالت النجف مكانتها العلمية والأدبية والسياسية لم يسلم بعض الطبقات من شذاذهم فبينا تسمع أزيز الرصاص يلعلع بين الحزبين وتشاهد البنادق تصليهم بنيرانها والتحامهم بالسلاح الأبيض ترى الشذاذ والأذناب يعدون على الفقير فينهبون عباءته أو ملحفته من على ظهره أو يقصدون أحد المثرين فيقسرونه حتى يدفع قدراً من المال وإن أبى فالقتل ولا يستطيع هذا المستضعف أن يتخلف عن دفع ما يفوهون به بالغاً ما بلغ.

وإذا حلت الليالي السوداء من كل شهر فذلك عيد أولئك الشذاذ أما الليالي المقمرة فهي يوم حزنهم وكآبتهم لأنهم يكفون عن السلب والنهب فيها خوفاً من أن يعرفوا فيشي السليب

إلى زعيم أحد الحزبين المنتسب له ذلك الشاذ فينكل به إذ كان الزعماء نوعا ما يرون حرمة للمجتمع النجفي تجب رعايته وإذا حل عيدهم قلما أن يسلم منهم من تأخر إلى أن تذهب الساعة الثالثة من الليل بل الثانية دون أن تنهب عباءته وتسلب منه بعض ملابسه الآخر وما معه من النقود!

واستمر هذا التقابل بين الحزبين «الشمرت والزكرت» زمناً طويلا كانت النفوس فيها عرضة للفناء ومع أن كلا منهما ثار لصاحبه لم يجد الغدر هناك مرتعاً خصباً فيرتع فيه لأن كلا منهما عربي صريح وليس من شيمة العربي الغدر فكان يسير أحدهما إلى جنب الآخر أو يظفر به في خلوة أيام السلم -وما اقصرها- أو الحرب فلا يناله بأذى وفي الأيام الأخيرة استطاع زعماء الحزبين أن يضربوا على أيدي الشذاذ ويقطعوا دابر عبثهم وفسادهم رعاية لمكانة هذه المدينة المقدسة.

وكان سلطان العثمانيين قائماً في النجف كما كان قائماً في البلاد الإسلامية كلها، ولكن النجف خاصة لم يكن لسلطانهم فيها حرمة، فقد تضعف شوكتهم، وينحرم نفوذهم بحيث يكاد يتلاشى ويضمحل وقد تقوى فتصبح لهم السيطرة التامة، والنفوذ العظيم، وبالجملة كانت السلطة العثمانية بين مدّ وجزر وهذا ناشئ من سوء الإدارة وعدم تدبر السياسة وقد كانت السياسة العثمانية العامة في البلاد العربية سياسة خرقاء لم تستهدف إلاّ جمع المال من طريق العسف وجبايته إلى الأناضول مع قصر نظرها إلى المستقبل وهذا هو الذي أوجب تفككها وانحلال سلطتها في البلاد الإسلامية عامة ولما كانت النجف دماغ العراق المفكر وقلبه النابض للتطلع إلى حياة جديدة حافلة بالعلوم والفنون أبت أن ترزح تحت نير الاستعمار العثماني، وتخضع لسياسة الجور.

وقد رأت السياسة العثمانية أن تؤثر العمى على الهدى وتخص به البلاد العربية فحرمتها من الثقافة والعمران فلا مصانع ولا وسائل للري فيها ولا مدارس، ولا مستشفيات، لأن كل ذلك يستلزم حرمانها من شهوات الاستطالة في الحكم في البلاد العربية فالمدارس تخلق جيلا صالحاً للحياة، ووسائل الصحة تكافح الأمراض وتقضي عليها، أما المصانع ووسائل الري إذا توفرت فيها، تتوافر أسباب السعادة والهناء على أبنائها وتصبح البلاد جنة تطيب الحياة فيها ولا تلذ في سواها، وإذ ذاك تخلد النفوس إلى السلام، فتتجه نحو الحياة الروحية، فتأخذ الأمة العربية نفسها بما أخذته في عصرها الذهبي المزدهر بالعلوم والآداب والفنون، ولا يكون لها هدف إلاّ أن تصل إلى الغاية من الحياة، وليست هي إلاّ المثل العليا من كل نواحي الحياة روحية

كانت أم مادية وتختلف المثل العليا للحياة بقصر النظر وبعده، فكلما يكون الإنسان أبعد نظراً فلا يستهدف إلا الغاية الجميلة من الحياة وهذا لا يرى مثلاً عليا في الحياة سوى تلك، وهذا هو الذي أوجب أن يكون العالم والفيلسوف والأديب، والسياسي والمفتي والزارع والعامل والصانع والتاجر والطبيب وبالجملة أوجب أن يكون كلما تحتاج إليه الحياة.

وإذا كان هدفها ذلك -بطبيعة الحال- تضطر حكومتها إلى فتح مدارس درجات مختلفة وهذا من شأنها أن تخلق أمة تجتلي ليالي حياتها بنور العلم، وتشق لها طريقاً في الحياة سوياً، تسري فيه على نور ثقافتها العالية، وإذا حصلت الأمة على تلك المكانة في الحياة تخلع عن عنقها ربقة العبودية وتحطم عن نفسها عرى الاستعمار، وهذا لا يتفق والسياسة العثمانية التي جعلت الاستبداد والاضطهاد من أخص صفاتها. فسلبت حرية البلاد العربية، وجعلت نصيبها من الحياة الجهل والعمى بعد أن امتصت دمها، واغتصبت ثروتها والعراق من بين البلاد العربية كان أوفرها نصيباً من ذلك، لأن الثروة هي الباب التي يلج منها الإنسان إلى الغاية من الحياة وإذا أوصد الباب في وجه رائدها انقطع حبل الأمل من تلك الغاية لأن الإنسان إذا عانى أشد الأمرين -الفقر- أنساه ذلك كل شيء في الحياة حتى نفسه.

وليس هناك إداريون لهم خبرتهم وحنكتهم في شؤون الدولة فيجرون حسب الظروف والأحوال التي تكتنفهم بل كانوا ماهرين في ناحية واحدة، وهي التي أوجب أن يسمعوا بالغمزات وصيرت آذانهم في أكفهم، وأما ما يجري من سلب ونهب وتفكك وانحلال في أنحاء المملكة العثمانية فليس له من الأهمية قدرها للناحية التي مهروا فيها، لا بل كان ذلك شيئاً خارجاً عن حدود المملكة ولم ينشأ السلب و. و. إلا من الفقر الذي أنزلته السياسة الهوجاء بها.

فالنجف إذا ما تمردت وخلعت عصى الطاعة فليست بملومة في ذلك ويمكننا أن نقول إن النجف كانت أقل تمرداً من غيرها على السياسة العثمانية لأنها تدرك ما للذة الحكم، وللسلطة الحاكمة من المعنوية التي تجب رعايتها والاحتفاظ بها، غير أنها أرادت في ذلك أن ترشد تلك السياسة إلى اتخاذ خطة تكفل لها الحياة في البلاد العربية، وتعرض عن العسف والجور جانباً ولكنها أبت إلاّ وأن تلج في عميها، فزادت في الطنبور نغمات حين أصدرت أمراً إلى ولاتها يقضي بوجوب تتريك العنصر العربي وهذا أمر لا تقوم له السماوات والأرض فكيف نخضع إلى ذلك أمة عريقة في المجد والسؤدد قد احتفظت بدمها ولغتها وتقاليدها وعاداتها، وأخلاقها منذ أن ألقتها القدرة على ساحل الوجود، مع ما احتكت بأمم أجنبية عنها، وامتزجت بها من أقدم العصور، وما خضعت إلى السلطة العثمانية ذلك الخضوع إلاّ لأنها إسلامية لا غير.

أوجب كل ذلك تنكر الأمة العربية منها أكثر من ذي قبل، ولا شك أن القلوب إذا تنكرت تبعد عن الخلود إلى الدعة والسلام، وتقوى فيها روح التمرد فلن تخضع لمن تنكرت منه مهما كلفها الأمر من التضحية فأخذت تعمل مخلصة للتخلص من سياسة خرقاء رعناء.

ولعل هناك من ينكر قولنا (سياسة خرقاء رعناء) ولكن إذا فكر قليلاً فيما قضت فيه تلك السياسة على العنصر العربي وهو تتريكه يرى أنها جاهلة بنفسية الأمة العربية جهل (العصامي) بالمنجمد الشمالي مع أنها هي الحاكمة والمسيطرة عليها منذ قرون عدة سيطرة ربان السفينة على السفينة، ولو كانت محيطة بنفسيتها إحاطة الماء بالغريق، لأدركت أن ذلك شيء يقضي بزوالها، وتقلص نفوذها من الجزيرة العربية بكاملها وتصبح نقطة سوداء في وجه التاريخ العام.

ثم إن فكرة تتريك العنصر العربي لم يكن إلاّ وليدة فكر يعمل لحساب الغرب لا بل هي وليدة فكر غربي، أوحى بها من طريق غير مباشر إليها وذلك أن الغرب حسب للدولة العثمانية ألف حساب وحساب فأراد أن يبغضها إلى الأمة العربية، ويحيلها قذىً في عيونها ولما كان الغرب يقظاً سلك مختلف الطرق لدراسة النفسية العربية، حتى أدرك أنها أمة تعتز بلغتها وأخلاقها وتقاليدها، وتحتفظ بها احتفاظ قاطع الصحراء على ما معه من قليل الماء فوضعت تلك الفكرة على لسان سماسرته، فأوحوا بها إلى تلك السياسة الجاهلة من طريق خفي لم تشم منها روائح ما ترمي إليه من وراء ذلك، فاطمأنت السياسة العثمانية بذلك، وركنت إليها دون أن تدرك سوء العاقبة وخالت أن تنفيذ هذه الفكرة والنجاح فيها لا يكلفها أكثر من أن تبذل أقصى جهودها المستطاعة في برهة من الزمن فحينئذ تصادق أمهات الدول على أن العنصر العربي عنصر تركي وليس أن يطالب باستقلاله فيما لو حاول ذلك ولجهلها لم تدرك مغبة الحال هذه فكانت النتيجة دفن نفوذها هناك بعلمها ودفن في هوة جهلها.

ولم نهتد إلى أن الظروف تمخضت بحياة جديدة نظامها سحق الاستبدادية إلاّ بعد أن اتسع الخرق عليها، فحاولت -وعبثا حاولت- إصلاح شؤونها بفتح مدارس لان القلوب إذ تنكرت وتنافر ودها يستحيل تقاربها فتفاهمها، وليست هي إلاّ ماء أريق على الأرض، فهل بمقدور أحد جمعه وإعادته كما كان أولاً؟ ليس إلى ذلك من سبيل وكيف تركن أبناء الضاد إلى تلك السياسة الهوجاء وذل الاستبداد ماثل أمامها؟! ومرارة الذل قد أضاعت على تلك القلوب الحرة الأبية لذة الحياة حين عدت عليها فابتزتها حقاً منحتها به الطبيعة عندما ألقتها على ساحل الوجود.

وبطبيعة الحال هذه لا بد أن تنجر البلاد إلى نزاع مستمر وحروب دامية على طول نفوذها، فضعف أمرها وانحط شأنها، وسقطت هيبتها وتلاشت قواها فكانت النتيجة طمع

الغرب في البلاد العربية لكثرة خيراتها ولم يكن حظ هذه البلاد من سياسة الاحتلال إلاّ نفسه من أختها السابقة عسف وظلم وجور.

فكان لتلك الكوارث الطارئة على العراق خاصة والجزيرة العربية عامة وللآلام التي أنزلتها به سياسة الإرهاق الهوجاء وللأحداث التي أفضت مضجع كل عربي أبلغ الأثر للعمل بجد وإخلاص للتخلص من السياسة العثمانية وسياسة الاحتلال التي أخفت وراء وعودها البراقة كل شر لأمة القرآن.